في الزمن وقف على مدهشات وعجائب تحير العقل ، وتخلب اللب ، وتثير الدهش ، وتزيد في العبر

والآن ... وبعد أن ظهر لك بعض الفوائد التي جنتها البشرية من هذا العلم السامي المبني على أدق القوانين الرياضية والطبيعية ، وبعد أن تبين لك أثر بحوثه على عقلية الانسان ، بعد كل ذلك هل من الانصاف أن يقال إنه علم غير مفيد ؟

أوليس الانصاف والعدل يقضيان على الانسان أن يعترف بسموه وسحره الحلال الأخاذ ؟

أليس الوقوف على أسراره ومحاولة كشف غوامضه مما يزيد المرء اعتقاداً بضآلته وشعوراً بأن الواجب عليه أن يكون كثير التواضع وفي الذروة العليا من سمو الخلق ؟

ثم أليس هذا التواضع وذاك الخلق السامي من العوامل الأساسية في سعادة البشر وطمأنينتهم ؟

وأخيراً أليست السعادة والطمأنينة هما الغاية التي يصبو اليها الانسان على سطح هذه الكرة العجيبة ... ... ؟؟

(نابلس) قدري حافظ طوقان

بيوولف

BEOWULF

أقدم ملاحم الانجليز الشعرية

للأستاذ حسن عبد الحليم اليماني

تمهيد تاريخي :

يرجع أصل الانجليز إلى قبائل الانجلو سكسون التي كانت تنزل الأراضي المنخفضة الألمانية في الجزء الممتد من مصب نهر الالب إلى شاطئ البلطيق ، وذلك قبل أن يدعوهم البريتون سكان الجزر البريطانية الأصليون في عام ٤٤٩ م لطرد قبائل الغال التي وفدت على بلادهم مستعمرة . وحلا لهم بعدها البقاء ، وتكاثروا حتى غلبوا أهل البلاد على أمرهم ؛ فبرزت إلى الوجود ثلاث ممالك انجليزية ضمت تلك القبائل المتفرقة ؛ وهي ممالك : نورثمبريا ، وميرشيا ، ووسكس Northumbria, Mercia and Wessex ، وذلك في أواخر القرن السادس الميلادي . وكان الانجليز قد حملوا معهم نصيباً من الأدب المتوارث تواتراً عن موطنهم الأول . ولم تكن لهم حروف صالحة لتدوينه ؛ حتى إذا اعتنقوا المسيحية ، عرفتهم إلى حروف الرومان الهجائية ، فسجلوا بها ما وعته حوافظهم من ذلك التراث . وقامت في هذا الصدد محاولات ناجحة ، ازدهر بها سوق الأدب ونفق ، وخصوصاً على يد أهل نورثمبريا التي قامت على رعاية الأدب وحفظه ، فدونوا الملحمة الشعرية « بيوولف » التي سنتكلم عنها كما سجلوا غيرها من آدابهم وتواريخهم . ونمت تلك الحركة إلى أن صدمها الغزو الدانماركي الذي عاود البلاد مرتين ؛ ثم شلها بعده الغزو النورماندي عام ١٠٦٦ م ، فأوقف نماءها قرابة قرن ونصف قرن . فالذي خلص لنا من تراث ذلك العهد إنما يمثل لنا في صدق صميم الروح الانجليزية ، قبل أن تسمها مياسم جديدة من أثر الاختلاط بين الانجليز والبريتون ثم بينهم وبين الدانماركيين والنورمانديين اجتماعياً وسياسياً ؛ وقبل أن تطبعهم المسيحية بطابعها . كما أنها ترسم لنا تلك المحاولات الأولى التي قام بها الانجليز في سبيل تدوين أدبهم والتعبير عنه ؛ وتوقفنا على التدرج الطبيعي الذي لازم تلك الجهود من دور إلى دور

بيوولف

بيوولف ملحمة شعرية طويلة فيما يزيد على ثلاثة آلاف بيت نظمت - على الأرجح - في مستهل القرن الخامس الميلادي ، قبل أن يزايل الانجليز موطنهم الأول إلى بريطانيا . وطابعها المميز لا يقوم على أنها أقدم قصائد الانجليز عهدا ، بل على أنها أصدق صورة للمجتمع الانجلوسكسوني القديم ، توضح لنا في جلاء حياة القوم في وطنهم الأول ، وترسم لنا أخلاقهم وعاداتهم ؛ وتنفذ إلى أكواخهم ودخائل معايشهم ، وتسجل تاريخهم وأيامهم . فقيمتها لهذا لا ترتكز على الناحية الفنية فحسب . أما عبارتها فأنيقة موجزة ، تطرد كل الاطراد مع الموضوع الذي تؤرخه وتروي حوادثه الحربية ، في سرعة وتسلسل لا يفقدانها توازنا ، أو يبعثان إلى سطورها مللا وسآمة . وهي وإن كادت تخلو من التشبيهات التي لا تعدو خمسة ، فيها كثير من الاستعارات الجميلة البسيطة . والشعر السكسوني لا يأبه للوزن والقافية ، وإنما يعتمد كل الاعتماد على النبرات والمقاطع المشددة ، يكاد يلتزمها في كل جزء من أجزاء البيت ، فلا يكاد يخلو جزء من ثلاث كلمات مشددة ، تتشابه كلها في حرفها الأول غالبا

وبيوولف قطعة رائعة نادرة من الأدب القديم ، ظلت حبيبة إلى قلوب الانجليز ومشاعرهم خلال عدة قرون ، وإن كادت تختفي اليوم وتنسى إلا من كتب الأدب . وكثيرا ما أوحت إلى الشعراء وأمدتهم ببضاعة حية زاخرة ، وآخر من نلمس أثرها فيه منهم شاعر اسكتلندا الكبير وليام دنبر William Dunbar (من حوالى سنة ١٤٦٠ إلى سنة ١٥١٣ م) . وهى إلى هذا لا تخلو من سطوة الخرافة عليها ، شأن الملاحم القديمة ، تلك الخرافة التى أنتجها الخيال الآرى الخصب ، والتى تظهر لنا واضحة جلية فى آداب الاغريق والرومان والتيوتون (آباء الأنجلوسكسون) ، والتى تراها تتسلل إلى أساطير الفراعنة أيضاً . وهى فى كل حالاتها تحاول أن تمجد الانسان وترفعه — على صور عدة — إلى مصاف الآلهة وأنصاف الآلهة ، وحتى تنتظمه وإياها فى وشائج وأنساب متشابكة متداخلة ؛ على أن أسطورتنا هذه لا تسمو ببطلها إلى حيث يختصم الآلهة وينتضل الأرباب ، بل تقنع بتوجيهه إلى أغوار الجن والمردة ، يصارعها وتصارعه ، حتى يغلب أشدها مراسا وأقواها أيداً

ولغة القصيدة لاتكاد تفهم اليوم ، فقد نبت واستوحشت . وحوادثها تدور حول البطولة الوثنية وحول حياة قبائل البلطيق فتتخذ لها مسرحا أرض زيلند وجوتلند وخليج البلطيق الذى يفصلهما .

حكم زيلند [1] — فى الماضى السحيق — الملك روثجار Hrothgar وكان أبدا مظفراً فى حروبه ، ظاهرا فى غزواته ، تضفى عليه تلك اسماعريضاً ، وتدر عليه هذه أسلاباً وغنائم ، حتى إذا أتخمه الخير ، وفاضت خزائنه غنى ، ابتنى له ولفرسانه قصرا منيفاً Heorot جميل الأبهاء فسيح الأرجاء ، موشى الجوانب مستفيض الرونق ، يقيمون فيه نهارهم لاهين فرحين ، وليلهم قاصفين ثملين — وإلا فمن أولى من الأبطال الميامين بساعات تروّح عنهم أكلاف الحرب وأثقال النزال ؟

قام القصر على أرباض شاطئ رملى ، ينداح حتى ينتهى إلى مجاهل موحشة ، تتاخم أغوار الماء حيث يقيم المارد جرندل Grendel المخيف فى رفقة أمه ، وكان الفرح والنور أعدى أعداء ذلك المارد ؛ جرى فى دمه بغض متأصل لهما ، ما يكاد ينفذ إلى حواسه منهما دبيب أو بريق ، حتى يثور داؤه ، وحتى يود لو التهم هذا القصر الذى ما عرفت حياته غير الفرح والنور وبعث به إلى فمه لقمة تتساغ بالبرد والراحة إلى جوفه . وبينما أمراً ما زال يتربص له الفرص متلصصاً حول القصر ، حتى إذا آنس من أهله غفلة ران بها عليهم كرى ثقيل ، وذبلت الأضو وخرس الصخب ، انساب إلى القصر خفياً ، ثم كرّ عنه وا قبضته ثلاثون فارسا . حتى إذا تنفس الصبح ألهب القصر شجو وأقام بأرجائه مناحة !

وتمضى اثنا عشر عاما قاسية مريرة ، يفجع فيها المارد قه هيوروت Heorot فى كل ليلة ، وينفلت سالما فى كل مرة بضحا لا تطفأ له حفيظة أو يرد سغب ، حتى أوشك القصر أن يقفر من رجاله ، وحتى تهاوى الملك روثجار منحدرا إلى الضعف والهرم ، يثقله الحزن وتتلقفه الفواجع وترامت الأنباء وملأ الأسى كل قلب ، حزنا على ذلك الملك المجيد ، وعلى ما ألم به من مصائب لا تكاد تبين !

وفى قصر هايجلاك Hygelac ملك جوتلند ، حيث يعيش قريبه الفتى بيوولف Beowulf ترددت أنباء الفجيعة ، فدلفت من أسماع الفتى إلى قلبه ، وحركت فيه توقا إلى ملابسة هذا المشهد ، وإلى الاستمتاع بمصارعة ذلك المارد ، الذى طغى وطغا حتى لا مزيد على طغيانه . كان فتى خارق القوة ، يختزن كفه بأس ثلاثين رجلا ، يملك على نفسه حب المخاطرة سعيا ور الاسم ونشوة النصر ، وفى خمسة عشر من صفوة رجاله احتو السفين لجزا ، ميمما مملكة زيلند ، حتى طالعتهم صخورها تلتم فى أضواء الغسق الخفيفة فى فجر اليوم التالى . وقابلهم حارس الشاطئ فى شك ، وماعتم أن صحبهم إلى القصر كما طلبوا . وهنالك على الأبواب ألقوا بتروسهم ومزاريقهم ، وخفوا إلى لقاء الملك فى خوذاتهم الذهبية ، وقد زادتهم بهاء وروعة « ودب إلى روثجار بمرآهم دبيب الصبا وعاودته أحلام الفتوة » وأفضى إليه بيوولف أنه جاء فى طلب المارد ، علّه يريح الشعب الصديق من شره وأذاه . ورحب الملك بمعونته شاكرا . ودوّت أبهاء القصر مرحبة بالضيوف البواسل ، ومضى النهار وشطر من الليل فى قصف وشراب وغناء ورقص . حتى إذا دنا موعد قدوم المارد تسلل كلٌ إلى فراشه وخلا البهو لبيوولف ، يلتفع الظلال ويتخفز بها متحفزاً للقاء ممداً له عدته

برز المارد من مكنه فما هى إلا أن ولج باب القصر ، حتى

(١) عربت هذا الملخص فى قليل من التصرف عن المستر . ج لوجى روبرتسون .

بتواه بهوه ، تومض عيناه شررا ، وتنطلق ضحكاته عريضـة ، د وجد سبيله ممهدا ؛ فالكل غاف مستغرق . وتناول أقرب وّام إليه فعبّ دمه ثم التهمه ، ودار إلى فريسة أخرى ، وإذا بضة بيوولف الجبارة تشل ساعده . أذهلته الفجاءة ، ولكنه البث أن أفاق إلى صراع عنيف مع بيوولف - واهتز القصر ت أقدامهما ، وتهاوت السرر ، وتحطمت المقاعد ، ونزع وّام على ذلك المشهد المروع . وجاهد المارد طويلا واستجمع بشه ، لا ليحطم بيوولف كمهده بيني البشر ، وإنما ليقنع لافلات تاركا لقبضته كتفاً مخلوعا وذراعاً مفصولا !

وجاء الفجر ، فخرج بيوولف برجاله فى أثر دمائه المنزوفة ، هنالك على الشاطئ طالعهم الماء أحمر قانيا وقد صبغه الدم المسفوك ، أيقنوا أن المارد قد ودّع الحياة إلى القاع قبرا يطويه ، فلا نشور ، ولا رجعى . فيا للفرح يثير البلاد ويملك عليها المشاعر ! يا لبيوولف يخب فى الخلع ، وتثقله الجوائز !

استطاعت الأجفان أن تطعم النوم فى ليلتها تلك ، ولكنها نامت عن أم نكلى ، قرّح الدمع أجفانها ، وتحلبت شفتاها ارماً ، وعصف بها طلب الثأر . وفى هدأة الليل هاجت أم المارد القصر ، وأهله تستغرقهم أحلام النصر ، ومضت عنه ومعها ذراع ابنها وأحد النبلاء انتقاماً للقتيل ، وارواء لهامته ! وهب الغافلون فزعاً فاذا بها تمضى إلى وكرها كالريح الخاطف ، الأمر الذى أحنق بيوولف فأقسم ليلحقنها بابنها وشيكا

خرج بيوولف برجاله صباحاً يقتصون أثرها ، ويذرعون تلك المجاهل الموحشة ، فاذا بها أرض عذراء تكتنفها الخوانق ، وتقطعها الأخاديد ، وترقشها برك ومستنقعات آسنة ، تعج بحياتها وثعابينها ، يتحدر عليها الماء من شعب خفية فى الصخور ، فكأنه ينضح عن مزن ملىء وسحاب عامر ، ثم تغوص هذه البرك مدومة إلى كهوف غائرة ، بينا تلتهب هنا وهنالك - على سطح الماء - نيران خاطفة غريبة . « فلو أن قنيصة أنهكها الطراد ، وحوم على عنقها الشرك ، رأت فى أكنافها خلاصاً من موت محقق ، لآثرت عليها ذلك الموت ، ولوجدت فى ورده مشرعاً أعذب من وردها ! » وإذ وصلوا فى تطوافهم إلى حيث صرع جرندل المارد بالأمس تخضب الماء بدمه ، رأوا الصخور تعمر أجحارها بنفر من الجن ، وخف بيوولف إلى قوسه فأردى بسهم منها واحدا من هذا النفر - ثم استل سيفه الماضى Hrunting وغاص بعيدا بعيدا إلى الأعماق فى أثر الجن الغائص هرباً . ظل بيوولف على غوصه يوماً كاملا ، حتى إذا قارب القاع أطبقت عليه أم المارد - وكان خافها وسطاً بين الانسان والذئب - ثم حملته إلى كهفها ، حيث ثار بينهما نضال لم يغن فيه سيفه ولم ينل من لحمها الصفيق العضب ، وإنما أجدى عليه كفّه الجبار بمسك الجنيّة فلا تحير منه خلاصاً ، ووانته الفرصة فلمح سيفاً حديدا من سيوف المردة ، سرعان ما خطفه وأهوى به على رأسها فمزله . وأدار بيوولف بصره فاذا جثة المارد صريع الأمس - التى لا روح فيها ، وبالسيف الذى أودى بالأم فصل به رأس الابن ، وسبح بيوولف بالرأسين - مخلفاً وراءه كنوزا لم يلمه لألأؤها - وما زال يعلو إلى السطح ورأس المارد ينزف دماً ، حتى صبغ الماء ، وملأ قلوب رفاقه عليه فزعاً ، وقد طاف بهم أن دمه هو ذاك الذى خالط الماء ومازجه . وما كان أروع اللقاء وقد برز اليهم سالماً صحيحاً ! وحمل الرفاق رأس المارد ورأس أمه وألقوا بهما تحت أقدام الملك ، واستأذنه بيوولف فى الرحيل قائلا : « آن لك أيها الملك أن تهدأ بالا ، وأن يعرف النوم سبيله إلى عيون فرسانك » وانقلبت البلاد إلى شملة من الفرح ، وأقلع بيوولف فى عصبته إلى جوتلند ، تنوء رحالهم بالهدايا ، وتسير بذكرهم الركبان

وأتى حين بعد ذلك سمى فيه عرش جوتلند إلى بيوولف ، واعتلى تاجها رأسه ، فحكم شعبه خمسين عاما عادلا شجاعا ، لا يمل الغزو والجلاد . وكان آخر عهده بهما خروجه لقتال مارد مخيف أقام فى كهف من الكهوف يحرس فيه كنزا نادراً . وفطنت قبضة بيوولف فعلها فى المارد فأوردته الردى ، إلا أن حرّ أنفاس الجنى أتلفت جسمه ، ونفذت إلى دمه فسممته ، نتيجة لاشتباكهما فى صراع عنيف طويل ، واحتواه بعدها فراش السقم حيث غلبه الداء ومات . وعلى صخرة عالية يعتشرقها البحر ، وتشرئب إليها المروج الخضراء ، أقام أهل جوتلند نصباً من خشب الصنوبر الثمين ، علقت عليه الدروع ، ورفت عليه السيوف ، مثوى لجثمان مليكهم العزيز . وتنفيذاً لوصية بيوولف أضرموا النار تلتهم النصب ووديعته ، وتلاشت من أمام أعينهم رويدا رويدا صورة مليكهم الدنيوية ، حيث وجدت طريقها إلى السماء على ألسنة اللهب الصاعدة مع الهواء !

حسن عبد الحليم الجمالى